



القصير جدا - د. سكفان هدايت - قراءة في قصص

◆ آفاق سبيريز

أين ومتى استغنى المجتمع عن الطبيب أو عن الأديب؟ بماذا تلتقي لفظتي الأديب والطبيب؟ هل فجأة تساوت عدد حروفهما الأربعة؟ هل العامل المشترك بينهما في حرفي الباء والياء أم في الصوت والإيقاع؟ هل للعلاقة بين الألف والطاء نسبة بتعلق الطب بالأدب؟

هل تساعد إشارات الطبيب سكفان هدايت في تفكيك الغاز عناصر أيديولوجية لثقافة شعب خلال حقبة معينة؟ هل أنُ تمركز هدايت حول الطفولة والسلطة الغاشمة يعكس معاناة شعب مظلوم؟

يلتقي البعد الأدبي للطب مع البعد الإنساني للأدب في اعتراف البحث ولذة الاكتشاف، انغماس الطبيب في البحث يحده الجانب الإنساني لرغبة التغلب على المرض والألم، وانغماس الأديب يلامس الجانب الإنساني من خلال رغبة الكشف عن عوالم مليئة بالأسرار والغرائب، والطبيب يعتمد دراسته الأكاديمية مصطحباً ذكائه وسعة خياله في اكتشافه لنوع المرض، والأديب يعتمد خياله وفراسته، ومن لا نهائية تجدد القصص تتجدد الثيمة في كل نص، والتجدد بمعنى آخر هو تكرر، والتكرار هنا اختلاف في حركة الدوال مع ثبات الأصل، فكل علامة تعتمد على العلامة الأصل، والاختلاف في كل علامة يعتمد على الاختلاف الأصل، والبعض يرى أن التكرار أصل الوجود، لأن التكرار أصل لإعادة الإنتاج المصاحبة للاختلاف، وبحسب رولان بارت (كل مادة هي مادة صالحة للإنسان لكي يعهد إليها بقصصه) فأول عبارة لكافكا في قصة المسخ (ما إن آفاق غريغور سامسا ذات صباح من أحلامه المزعجة حتى وجد نفسه وقد تحول فراشه إلى حشرة ضخمة) جعلت غابرييل غارسيا ماركيز يقفز من مكانه ويصرخ (هذا يعني أنني حر في أن أكتب ما أشاء عن ما أشاء) والأصل في مجموعة دسكفان خليل هدايت هي البحث الاحترافي عن مجهولات تكررت في عوالم مختلفة، وإذا كانت اللسانيات المعاصرة قد حددت جغرافية الخطاب عند حدود الجملة، فلا ضير لو تجاوزناها إلى بعض الرموز التي تكررت (البحر-النهر-الطفولة-المجتمع)، وإذا أمعنا النظر في ماهية الرمز على أنه لفظة تحيل إلى تمركز

جوهري يثير التأمل.

وأغلب نصوص الطيب هدايت منتمية لجنس أدبي حديث-القصة القصيرة جداً- ونحاول أن تؤكد جميعها هوية الكاتب المثالية والقابلة للتكرار بصور مختلفة وبشكل ملحوظ وقابل للدراسة والتحليل، لأنه تمكن من تطويع الموروث الشعبي الذي يحاول أن يحاكيه أو يستنطقه في جنس أدبي مغاير من حيث الأسلوب والمعنى، فسرده يتميز ببساطة التعبير عن مأساة إنسانية قديمة ولكنها ما زالت تتكرر، ومن خلال معاشيته للمجتمع كطبيب تمر عليه يوماً في عيادته العديد من الحالات المتنوعة والمتضمنة الكثير من القصص التي يكتبها هو بأسلوب جميل وسلس إلى قصيرة جداً، ولكن هل كتب هدايت قصصه بذهن الطبيب وحده؟ والطبيب تشيكوف لم يمارس الطب لذا كان الكثير من أبطال قصصه أطباء، وهدايت مارس الطب وشعر بأنه أب كبير للمجتمع، والطبيب الماهر يعتبر كل واحد مريض حتى تثبت سلامته، ويدرك نفسية الإنسان الذي يتوجه إليه بنصوصه، بأسلوب شيق، وهدفه إثارة اهتمام القارئ بالمشاكل المعروضة، إنه من خلال حياته تمكن من الغور بعيداً في أعماق المجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ونفسياً، ليس من خلال عيادته فحسب بل من خلال عمله في السلك الجامعي الأكاديمي، د. هدايت صنو الألم والمعاناة.

العنوان: العتبة الأولى، التي قد يتعثر ويتوقف عندها القارئ أو ينزلق، ومن أهم عناصر النص، وله قيمة دلالية يعتمدها القارئ والدارس، ويمكن اعتباره ممثلاً حاضراً عن سلطة عليا، وعن معاني مغيبة، وهذا الحضور يمارس إكراهاً وجبراً على القارئ الاعتيادي والمتخصص بدرجات مختلفة، فربما قد يفسر القارئ كل الدوال على شعاع النور الذي يضيئه العنوان، والمجموعة القصصية حملت عنوان(العصافير أيضاً تبكي)ويجري عادة أن يكتب القاص قصته القصيرة جداً بسرعة كبيرة، ربما لا يستغرق أكثر من دقائق، لكن هذا لا يمنع من أن يبقى يراجعها لفترة طويلة، تمحيصاً وتطريساً، وبحثاً عن عنوان ملائم، والذي حدث هنا أن الكاتب ربما وضع العنوان قبل أن يكتب النص، أو ربما لم يعط عملية عنوان النص الأهمية التي تستحقها، فجاءت صريحة وغير مربكة ومباشرة وواضحة

لتشكل إطاراً يضيق عن معاني النص ويحدد من اتساعه، فاستخدم العنوان كوسيلة تقليدية للكشف عن طبيعة النص وفك الغازه، استراتيجية قديمة قد أهملت منذ منتصف القرن العشرين، ولو قدر لشكسبير أن يعيد عنوانه مسرحياته لفعل ذلك مبتهجاً، ولما سمي هوكو بؤسائه بالبؤساء.

لكل فرد لغة خاصة به، وهذه اللغة لم توهب له كالحياة عند الولادة، وإنما اكتسبها بشكل تدريجي، وعملية اكتساب اللغة هي من أهم عناصر التنشئة الاجتماعية، وإذا لم تكتمل بشكل أو بآخر فإن الشخص سيصل إلى الجنون بسبب طفولة غير منتهية، والطفل الذي لم يصل إلى مرحلة التعبير يقف أمام المرأة حائراً وهو يرى نفسه كياناً كلياً(وحدة وهوية خاصة مميزة) وإذا ما اجتزنا عقدة أوديب إلى عقدة اللغة التي يجد الطفل نفسه مكبوتاً أمامها ومحددة عالمه الخاص ومدخله الوحيد إلى المعرفة ووسيلته في التعامل مع الآخرين الذين يعتمد عليهم ومن هنا تتشكل بنية المستوى الرمزي، وباكتمال عملية الاكتساب قد يحدث تكوّن إلى مرحلة الطفولة من خلال مستوى رمزي يشكل بنية مصطنعة ووهمية وزائفة، نجرّ مكرهين إلى تشكيلها على نمط أقدم تجارب طفولتنا التي انكشفت من خلالها جوانب مظلمة أو منيرة من أنفسنا مما يجعلنا نحصل على ثبات من نوع ما للهوية الذاتية التي نمتلكها.

رغم كثرة الدراسات التربوية، لكن لا زالت ثقافة الطفل تفتقر الكثير من النصوص التي تتناول هذا العالم الساحر وسيظل النقد يناهز بنفسه عنه، والأنماط الإبداعية الأخرى المتصلة بالأطفال، ورغم أن 19قصة من مجموع 59قصة كانت من نصيب عالم الطفولة لكن هذا لا يمنع من محاولة إسقاط هذه القصص على عوالم أخرى. نسبة 32، 2% من الكتاب تتكلم عن عالم الطفولة بشكل مباشر وصريح، وهذا التعلق الشديد بعالم الطفولة يقود النص إلى الإسراف العاطفي، ومن ثم تبدأ غواية النص بالعمل في جرّ القارئ إلى شرك ومصيدة استخدمت من قبل ديكنز في أوليفر تويست، ونغمة العزف على أوتار الطفولة كثيراً ما تسللت إلى آداب الشعوب المضطهدة، ففي قصة الكف-الدرس ص-97

نصف قصص المجموعة كانت ذات طابع سياسي مباشر، وسبع قصص اجتماعية، منها قصة حالة ص 96 حيث وقف البطل على حافة جسر حجري، السرد بضمير المتكلم، (وقف أحد المارة وسالني:..هل سقط منك شيء؟- نعم لقد أضعت هنا صورتي..قبل أكثر من ثلاثين سنة، وأنا أبحث عنها الآن..!طاطأ الرجل رأسه في أسي، وتمتم وهو يمضي: بشراكم أيها المجانين، لقد التحق بركبكم الموقر واحد آخر). لا أدري لم لم يقل مجنوناً آخر؟ لعله أراد تعميم الجنون من واحد إلى الكل.

وهو يتطرق إلى عالم الأديب من خلال نافذة علاقته بالسلطة في قصة(السيف) يكتب على كل ما يجده أمامه..صفحة كتاب، جدار، باب، مرآة..وأخيراً فكر أحدهم في مخرج، وابتسم بخبث، فقدم له سيفاً وقال له:- فلتكتب على حد هذا السيف إن استطعت. احتار الرجل وتردد، وعندما شرع في الكتابة انشطرت كلماته إلى نصفين على حافة النصل البتار-ص(85) فهو لا يجد فرصة لنشر نصوصه، لذا فهو يصنع الفرصة ولا ينتظرها، ولكن الشر بالمرصاد، والسيف يمثل السلطة التي حين يقترب منها النص يتردد الكاتب، وقد يحجم أو يباشر متحملاً تبعات الكتابة بشجاعة، وهو قد وضع ثلاث قصص قصيرة جداً، تحت عنوان(عالم خامس: 1- السيف- 2- الرقابة- 3- المكافاة) وجميعها تتناول ومضات من تعسف السلطة في علاقتها بالمتثقف من خلال رقابتها على المنشورات ومنعها نشر الكتاب الذي ختم بالأحمر، وفي مكافاة يستلم الكاتب المعوز مكافاة الجريدة نظير آخر مقالة كتبها، وداخل ظرف الرسالة وجد عبارة كتب عليها(ليس مكافاة على ما كتبت بل من أجل أن لا تعود إلى مثل ما كتبت، مرة أخرى-ص86) والأدب مهنة الفقراء، ومنذ أقدم العصور مارس الأدباء مهنة أخرى إلى جانب الأدب تقيهم الجوع، فقد كان الجاحظ ينسخ الكتب لقاء أجر، أما الذين لا حرفة لهم فقد اعتادوا الوقوف على باب السلطان جائراً كان أم جاهلاً، كريماً أم بخيلاً، يكرمهم يوماً ويحرمهم شهراً، هذا في السابق، أما اليوم فقد اختلف نسق العلاقة ليتألق ويتاطر في المؤسسات التابعة للنظام، وأغلب الطغاة يحيطون أنفسهم بأبواق من ادعياء الثقافة والأدب.

(سياسية-رمزية) ترمز للطف الذي يضرب باستمرار ودونما سبب حتى يصير الذل جزءاً من هويته، وفي قصة(تمرد-ص27) فغادروا على الفور عالم الكبار ودخلوا عالماً آخر لا توجد فيه أوامر) وفشلت حركة التمرد لعدم القدرة على الاكتفاء الذاتي، فهم لما تمردوا على عالم الكبار، جاءهم ما لم يكن بالحسيان، ومن المستحيل وضع خطة وإيقائها بدون تغيير عند المباشرة بالتنفيذ، (ألم تلاحظوا بأننا لم نتغير. لم نكبر، ولم نتعلم أشياء جديدة) فقرروا العودة إلى أحضان الكبار.

إن سؤال كيف تكتب لا يقل أهمية عن ماذا تكتب؟ كيف توصل فكرتك للمتلقي؟ كيف تكتب عن شيء دون أن تمسه مباشرة؟ أسلوب اللطف في الكلام هو أن تذهب إلى الهدف بصورة غير مباشرة، ففي قصة(حقوق-ص11) عندما كنت أخطب أصغر أولادي الجالسين لصقي واصفاً إياه بالعاقل والوسيم..شاهد أخوه الأكبر..ما يجري فأسرع في الحال ووضع رأسه الصغير تحت كفي المبسوطة. وأخذ يتمسح بباطن كفي كما تفعل قطة جائعة) وكان من المفترض أن تنتهي القصة هنا دونما أي تعليق من القاص، لكنه علق(لقد كان يريد حصته من الحب والحنان، إنه حق يطالب به لا أكثر) هذه الجملة الأخيرة ضيعت على القارئ فرصة الاستمتاع، وربما استنتج أسباباً أخرى، فهو قد كتب وأول فسر، ولم يعد النص بحاجة للقارئ الفعّال، ولا القارئ المتخصص، والبنية السردية لهذا النص تقوم على الراوي بضمير المتكلم(أنا) وخنق الحوار بالكلام المباشر وذلك لقصره.

المجموعة تحاول إعادة عرّف نغمات مختلفة تأثر بها وشتتها في خانات متباعدة ومتغايرة ومتغايرة لإيقاع مجتمعات ذي خصوصيات، لذا فهو لا يقفنا يرنو إلى الخلود، وأفضل وسيلة أن يحاول التأثير في المجتمع بأن يترك أثراً في مخياله أو عقله السائد، وهدايت كأي قاص آخر يحاول التوفيق بين حياة الإنسان الرتيبة المليئة بالقيود والتكرارات وبين شوقه إلى عالم خيالي حر، والكاتب يكاد يترك بصمته الشخصية على معظم نصوصه من خلال إسقاط وظيفته على المجتمع كطبيب، وعلى الطبيعة البشرية كقاص ومرور لطيف بمواضيع تمس السياسة مسأً لطيفاً كنسمة هواء ربيعية، حيث إن